وهو ما لا يكفي وما ينبغي بالتالي السعي الى تغييره بالتي هي أحسن ان كان ذلك ممكناً، أو بالتي هي أسوأ إن كان ذلك ضرورياً» (ص ٣٢). ويضيف: «ففي حال التعارض بين مصالح ' الممثل ' بأبعادها المهجرية الضيقة، من جهة، وبين المصلحة الوطنية العامة، من جهة أخرى، يبدو الخيار واضحاً للغاية. ونحن في نهاية الأمر، لا نقاتل من أجل عمر» (ص ٣٢).

هل يمكن بعد قراءة هذه الخلاصة أن نفهم أن منظمة التحرير الفلسطينية هي ممثل شرعي وحيد لمصالح «المهجريين» من ابناء الشعب الفلسطيني ؟ بل هي يمكن ان نضع (كما يفعل جريس) تعارضاً وتناقضاً بين مصالح هؤلاء «المهجريين» وبين المصلحة الوطنية العامة التي يتحدث عنها ؟

هذه «النكهة» من الاحاديث، تذكرنا بـ «نكهة» بعض احاديث من هم في الداخل من هواة اتهام منظمة التحرير بأنها لا تستطيع ان تفهم، مثلهم، مصالح الشعب الفلسطيني في الارض المحتلة. وهم يتميزون عن صبري جريس بأنهم، حقاً لا قولاً، مبرئين من المهجرية ويقيمون في الارض المحتلة. واستطراداً في هذا الفهم، يمكن ان نفهم مقالة الكاتب، خصوصاً وان لغة المقالة، من أولها الى آخرها، اتسمت بلهجة السخرية مرة، والشماتة مرات، وفيها كلها كان الكاتب يتحدث عن المقاومة باعتبارها شيئاً لا يمت اليه بصلة القربى، ولو من بعيد. نقول هذا ونحن نلمس سوء استخدام الرؤية في تسخيف واقع الحال الفلسطيني الى أبعد حدّ. ذلك لا يتأتى الا بلغة نقدية شديدة، تأخذ في ظاهرها شكل الحرص على تثوير واقع المقاومة، فاذا ما انتظرنا الاستخلاصات، جاءت هذه الاستخلاصات دعوة الى وراء، مشفوعة ببعض المواعظ الاخلاقية التي لا تفيد ولا قيمة عملية لها في ثورة تواجه هذا الكم الهائل من الاعداء. والكاتب اذ يحلل موازين القوى الراهنة، كأنه يقبّل اليد التي لا يستطيع ان يعضها، ثم يعوض عن ذلك بأن يدعو عليها بالكسر (ولكن في سرّه)، كما يفعل بالنسبة الى السياسة الاميركية، أو المصرية، على سبيل المثال. أما الاصدقاء، فهو يجد القدرة على الدعوة الى نفض اليد من صداقتهم. الكاتب يسخر كثيراً من موضوعة الوحدة الوطنية، بل ويعتبر هذه الموضوعة احدى المآسي التي تمخض عنها المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الاخيرة. واذا كنا نريد ان نفهم مقالة صبري جريس الاخيرة، فان علينا ان نقرأ معها مقالته السابقة «في التقاليد المهجرية: ملهاة ' الوحدة الوطنية ' »*. حينذاك، نفهم حرص الكاتب على هجاء الوحدة الوطنية. ففي ظل غياب معظم الفصائل الرئيسة عن الدورة السابقة للمجلس الوطني الفلسطيني، وجدت افكار جريس انتعاشاً ورواجاً؛ وحرص أصحابها، ومنهم جريس، على «النضال» من أجل تكريس هذه السياسة المتفردة. كان أصحاب هذا التيار يرون في غياب الفصائل فرصتهم الذهبية لدفع منظمة التحرير الفلسطينية نحو تحالفات من لون معين واعتقدوا، لفترة من الوقت، وخصوصاً بعد توقيع «اتفاق عمان»، بأنهم قد وضعوا منظمة التحرير وقيادتها الوطنية على أول سلم التنازلات. ومن هنا، كان «اتفاق عمان» (وبالادق ولوج التسوية من بوابة المشاركة الاردنية) يعتبر في نظرهم منتهى العقلانية وسداد الرأي. وها قد جاءت الرياح بما لا تشتهي سفن أصحاب هذا التيار، فتصاعدت لغة هجاء المرحلة الراهنة، خصوصاً ان هذه اللغة النقدية العالية، والتي وصلت حد الفجاجة، لم نجد منها مثقال ذرة في المقالات السابقة. لماذا هبطت على جريس، فجأة، هذه اللغة النقدية ؟ وكيف نزلت عليه هذه الرؤية البانورامية لعيوب الثورة ومنظمة التحرير ؟ وهل اكتشف، فجأة، خراب الادارة وموسمية الكفاح المسلح ؟

لا نعتقد بأن الامور بمثل هذا التبسيط. ان الفكر المقاوم ـ مثله في ذلك مثل الفكر السياسي عموماً ـ بحاجة دائمة الى تجديد نفسه. ولا نقول جديداً، اذا أكدنا، هنا، ان العديد من مظاهر الترهل والبيروقراطية يسود الجسم الفلسطيني المقاوم، ولا غنى عن دحر هذه المظاهر واقتلاعها وتسويد حالة من الفعالية في مؤسساتنا الوطنية وفي اوضاعنا التنظيمية. على ان هذا كله يصبح أداة هدم وتيئيس اذا لم يأخذ في اعتباره الحقائق الموضوعية التي تحيط بالواقع الوطني الفلسطيني. هل يمكن ان نغفل، للحظة واحدة، عن حقيقة كوننا جزءاً لا يتجزأ من حركة تحرير عربية تعيش مرحلة بالغة الردة ويسود معظم ساحاتها (ان لم نقل كلها) طاغوت

* راجع شؤون فلسطينية ، ١٦٢ ـ ١٦٣، ايلول/تشرين الاول (سبتمبر/اكتوبر) ١٩٨٦.